موقع الملة بين الفلسفة والدين عند أبي نصر الفـــارابي.

د. تونسية حموش
جامعة الجزائر 2

Abstract

Through The Harmonization of Two Opinions of The Two Sages: Plato the Divine and Aristotle, Al Fârâbî , known as the Second-Master, established conciliation between the two philosophers despite their fundamental differences .And once this conciliation had been archieved , Al Fârâbî began another conciliation ;between Coran ,the sacred text, and Philosophy. Only follwers of the religion ,badly informed ,oppose such conciliation because they did not see that religion adopts images of "speculative things" that philosophy contains .Though the massage is the massage is the same ,philosophy expresses itself in a demonstrative

way, whereas religion expresses itself through images. Philosophers will then try to help the ill-informed followers to get rid of their belief," by showing to them that their religion contains images of the contents of philosophy" ,as this religion is called "El-Milla"

Résumé :

A travers son œuvre intitulé « L'Harmonie entre les opinions de Platon et d'Aristote », le second maitre arrive à établir une conciliation entre les deux philosophes : une fois cette conciliation faite , celle qui sauve la vérité de la philosophie grecque , Al Fârâbî s'attelle à l'autre conciliation : celle qui existe entre le texte sacré « le coran » et la philosophie. Seuls des adeptes de la religion ,mal informés ,les opposent car ils ne voient pas que la religion adopte les image des « choses spéculatives » que comprend la philosophie .La philosophie s'exprime démonstrativement alors que la religion s'exprime par images, le message est le même dans les deux cas . Les philosophes tenteront alors de débarrasser ces adeptes mal informés de leur croyance, « en cherchant à leurs faire voir que leur religion contient des images des contenus de la philosophie ».cette religion qu'Al Fârâbî surnomme « El Milla » .

تمهيد

لقد درس الفارابي الفلسفة اليونانية واستوعب مقاصدها وتولى شرح غوامضها إلى أن لقب بالمعلم الثاني، وبيّنا كيف راح يتبنى شعار توحيد الفلسفة ممهدا لمواقف حاسمة في حياته الفكرية ونظرياته الفلسفية، منها التي كان فيها واضحا وصريحا، ومنها التي كان فيها ملمحا فقط. فقد كان صريحا مثلا في تحديده مفهوم الفلسفة والمقصود منها، وضرورتها في بناء المجتمعات الفاضلة ودورها في بلوغ أقصى درجات الكمال، بينما بقي مترددا في تحديده مفهوم الملة وعلاقتها بغيرها من الصناعات والمواضيع، وأثرها في صلاح الأمم أو فسادها، وله في كليهما ما يعلله. إذ أحيانا يقول إنها تشبه الفلسفة، و أحيانا أخرى يقول إنها تكاد ترادف الدّين وتردده هذا ليس إلاّ نتيجة إصراره على الجمع و التقريب بين الملّة من جهة و الفلسفة من جهة أخرى. كأنه يحدّد مفهوم الأولى بما يقارب مفهوم الثانية. كما نضيف إلى هذا، تردد الفارابي و عدم دقته في تحديده زمن حصول الملّة ذاتها، إذ يجزم في القول إنها تابعة للفلسفة في الزمن، إلاّ أنه سرعان ما يقول في مكان آخر إنه بإمكان حدوث الفلسفة بعد الملّة. و نحن في دراستنا هذه سنقف إلى هذه الآراء الفارابية بالشّرح والتّحليل.

و قبل أن نحدد في هذا المقال العلاقة بين الفلسفة والملة، و كيفية الجمع بينهما وتبيان الغرض منه، يجب علينا أولا توضيح المقصود من الفلسفة عند الفارابي وأهميتها، وكيف دعا إلى تحصيلها من خلال نصوصه مبيّنا دورها في معرفة الحقّ، وما المطلوب من صاحبها فعله من أجل بلوغ السّعادة القصوى.

إن المعرفة على حدّ رأي الفارابي نوعان : نوع يُعْلَمْ ولا يُعْمَلْ، مثل علمنا أن العالم محدث و أن الله واحد، ونوع آخر يعلم ويعمل، كعلمنا أن طاعة

الوالدين حسنة. أي أن المعرفة عبارة عن علم نظري وعلم عملي، ومن العلمين يأتلف العلم الذي يسمى فلسفة أو حكمة.

و الفارابي بصفته فيلسوفا ملتزما، حمّل نفسه مسؤولية إفهام الفلسفة وتبيان الحق، لإصلاح الأوضاع التي عاشها انذاك وإرشاد الناس، إلى ما هو أنفع وأجمل للجميع من خلال مؤلفاته وآرائه.

وسعيا اذا وراء العلم والمعرفة وليس وراء الكسب والمال، انشغل معلمنا بالتأليف والكتابة، في شتّى الصّناعات والعلوم دون أن يتدخل في شؤون الحكم المترديـة، ولم يساوره مجرد التفكير في ذلك، حيث «لم يهتم بالسّياسة بل بالعلوم السّياسية، وكانت غايته من ذلك أن يكمل حلقات السّلسلة الفلسفّية فيتّبع القسم النّظري بقسم عملي، ويحقّق بذلك تعريفه للفيلسوف الكامل».[1]

فلم يكن فيلسوفنا يطمع لا في مكسب ولا في منصب، بل كان يشتاق إلى جوٍّ ملائم للنظر في وضع الأمّة الإسلاميّة وما آلت إليه من خراب، والتّنظير فيما يمكن بفضله إخراجها من الحال التي هي فيه، وهذا هو واجب الفيلسوف الملتزم بقضايا مجتمعه، السّاعي إلى رفع الغبن عنه ليستعيد مجده و مكانته المفقودة، و لبلوغ هذه الغاية، راح معلّمنا يتحمّل على عاتقه مسؤولية إخراج مدينته المنهارة بفعل التمزق الذي أصابها، بتبني الطرق البرهانية والفلسفة، التي لا تكون من أجل البحث عن المجاهيل أو نقل الحكمة اليونانية و إنما من أجل الحدّ من الانقسام بشتى أنواعه و على كل المستويات من جهة، و تصحيح الآراء الفاسدة و الشائعة بين الناس، لأن «المدن الجاهلة والضالة إنما تحدث متى كانت الملّة مبنيّة على بعض الآراء الفاسدة»[2].

إلا أنه يبقى من الصّعب على الفيلسوف أن يصل عقول هؤلاء النّاس ويقوّم آراءهم، كما هو من الصعب على هؤلاء أن يفهموا آراء الفلاسفة كما

هي، أو على الأقل التمكن من تغيير آرائهم في الفلسفة ذاتها و الغاية منها، لأنه غالبا ما اعتبرت كفرا من جراء المتلاعبين بمفاهيمها لتغليط الناس و تشويش أفكارهم.

و تجنبا لهذه الحال، قام الفارابي بعملية فرز لما هو صحيح من الآراء وما هو صالح من الأفعال أيضا، بيّن مدى نفعها للجميع، إذ صحّح المفاهيم أولا ثم عمل على تسمية الأشياء بمسمياته وإعطائها الألفاظ الدّالة عليها، دون تغليط أو لبس معتمدا على حكمته وترفع أخلاقه و نبل سيرته التي جعلته قدوة ونموذجا ملموسا للفيلسوف، الذي كان هو في حدّ ذاته يرسم ملامحه في نصوصه الفلسفية.

أولا: مفهوم الفلسفة عند الفارابي.

قبل أن يحدد الفارابي مفهوم الفلسفة والمقصود منها، أشار أولا، إلى أنّ «اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل في العربية وهو على مذهب لسانهم [=اليونان]، فيلاسوفيا، ومعناه إيثار الحكمة. وهو في لسانهم مركب من"فيلا" و"سوفيا"، و"فيلا"، الإيثار، و"سوفيا"، الحكمة. والفيلسوف مشتق من الفلسفة، وهو على مذهب لسانهم"فيلوسوفوس"، فإن هذا التغيير هو تغيير كثير من الاشتقاقات عندهم ومعناه: المؤثر للحكمة».[3]

و الملاحظ أن الفارابي، قد تتبع كيفية انتقال الفلسفة من أمّة إلى أخرى، إلى أن وصلت إلى العرب المسلمين، جاهزة متكاملة، على حدّ تعبيره. فقد كان هذا العلم «في القديم في الكلدانيين وهم أهل العراق، ثم صار إلى أهل مصر، ثم انتقل إلى اليونانيين، ولم يزل إلى أن انتقل إلى السريانيين ثم إلى العرب، وكانت عبارة عن جميع ما يحتوي عليه ذلك العلم باللّسان اليوناني ثم

صارت باللّسان السّرياني ثم باللّسان العربي»[4].حيث ترجمت المؤلفات الفلسفية واعتني بها كل العناية، بتأسيس بيت الحكمة في عهد المأمون.

و هكذا لم تكن الفلسفة في نظر المعلم الثاني تراثا يونانيا فقط، وإنما هي تراث إنساني، لم تختص به أمة دون أخرى أو شعب دون آخر بل تضع كل أمة بصماتها وطابعها الخاص عليه، الأمر الذي يزيدها ثراء وتنوعا.

كما أشار معلمنا إلى أن مجالات الفلسفة واسعة و مواضيعها كثيرة، «حتى أنّه لا يوجد شيء من موجودات العالم إلا وللفلسفة فيه مدخل، وعليه غرض، ومنه علم بمقدار الطاقة الإنسانية»[5].

1- الفلسفة لغة واصطلاحا:

و حدّ الفلسفة وماهيتها «أنها العلم بالموجودات بما هي موجودة»[6]، فهي "علم"، لأنها معرفة يقينية، تقف على علة الشيء، وهي"علم بالموجودات"، في عمومها لا في تفاصيلها، لأن العلم بالتفصيل يرجع إلى العلوم الجزئية. وهي إنما تفحص عن الجسم بالإجمال، فتشمل في حكمها كل جسم وكل حي. والفلسفة هي العلم الوحيد الذي يقدم لدارسه صورة شاملة للكون، وهي تتمكن من ذلك لأنها تتصل بالعلوم الأخرى وتشملها. سواءً كانت «إلهية و إما طبيعية و إما منطقية و إما رياضية أو سياسية و صناعة الفلسفة هي المستنبطة لهذه و المخرجة لها»[7]. و الفارابي قد تناول هذه العلوم و الصناعات على اختلافها و بالأحرى كان من السبّاقين المسلمين إلى تصنيفها و ترتيبها في كتابه القيّم إحصاء العلوم.

و لمّا كانت العلوم منقسمة إلى عملية ونظرية، اشتملت الفلسفة بدورها على هذين القسمين، أي «الفلسفة النظرية والفلسفة المدنية»[8]. القسم الأول تحصل به معرفة الموجودات، التي لا يفعلها الإنسان وهي الفلسفة النظرية، والقسم الثاني، تحصل به معرفة الأشياء التي للإنسان فعلها. كما يمكن أن تحصل القوة على فعل الجميل منها وتسمى بالفلسفة العملية أو المدنية. والفلسفة النظرية بدورها ثلاثة أقسام من العلوم: علم التعليم والعلم الطبيعي وعلم ما بعد الطبيعة.

أما الفلسفة المدنية فقسمان: قسم تحصل منه الأفعال الجميلة والأخلاق الحميدة، وتصير به الأشياء الجميلة «قنية لها وهذه تسمى الصناعة الخلقية، والثاني يشمل على تحصيلها لهم وحفظها عليهم، وهذه تسمى الفلسفة السياسية، فهذه مجمل صناعة الفلسفة»[9]. و المهم في الأمر أنها تبحث عن حقيقة واحدة.

2- ضرورة الفلسفة ودورها الاجتماعي :

تمنى المعلم الثاني لو تمكن من القضاء على المجادلات الكلامية العنيفة، التي كانت تتميز بها مجالس بغداد، على غرار بعض العواصم الإسلاميّة و الدّعوة إلى الاعتناء بالفلسفة واقتناء آرائها بطرق برهانية يقينية. لأنه يعلم مسبقا أن تلك المجادلات الكلامية تزيد في التفرقة والصراع بين فئات المدينة من جهة، وتعمل على بقاء السّلطة المركزية القاهرة واستمراريتها من جهة أخرى. لأن وحدة المدينة تستمد من وحدة آراء أهلها، والفلسفة هي وحدها الكفيلة بالقضاء على هذه الاختلافات الفكرية بصفة خاصة وانعكاساتها الاجتماعية بصفة عامة.

و الفارابي ليس من السبّاقين إلى هذه الدّعوة الصريحة والاعتناء التّام بالفلسفة، إنما سبقه إلى هذه الدعوة فيلسوف العرب أبو إسحاق الكندي، الذي بين في مؤلفاته فضل الفلسفة وأهلها على المجتمع وضرورتها، وكيف أن محاربتها تخل بتوازن قوى المجتمع وتؤدي إلى فساده. فالمتنكرون للفلسفة هم «من أهل الغربة عن الحق، وإن تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق، ...ذبا عن كراسيهم المزورة التي نصبوها، من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدّين وهم عدماء الدّين، لأن من تاجر بشيء باعه، ومن باع شيئا لم يكن له. فمن تاجر بالدّين لم يكن له دين، ويحق أن يتعرى من الدّين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها وسماها كفرا»[10].

و الغريب في الأمر هو عدم تفطن هؤلاء المتنكرين للفلسفة إلى أنهم في حاجة إليها، عندما يقدمون الدليل على رفضهم لها، باعتبارها كفرا وخروجا عن الدين، وهو يرجع ذلك إلى جهلهم مواضيعها ومسائلها، التي تقف على معرفة الخالق تعالى وأنه واحد غير متحرك، ومعرفة الوجود ككل، الذي هو من صنع المبدع ومن خلقه.

إلا أن الفارابي، لم يعمم حكم إنكار الفلسفة على جميع الناس، بل أشار عدة مرات إلى أن هناك قوم «حنوا عليها وقوم أطلقوا فيها، وقوم منهم سكتوا عنها، وقوم منهم نهوا عنها»[11]. و كان من الصّعب أن يتفق هؤلاء كلهم على الرأي الصائب، حول الفلسفة والاعتراف بأن الإنسان يستهدي في كافة أعماله بقوة العقل وبالنشاط الإبداعي الفعال، إذ كان يقدر الفلسفة حق التقدير لأنها كاملة، وما على الإنسان إلا تحصيلها، بعد ما بسط التعصب العقائدي نفوذه و ترسّخ في عقول الناس وأصبح حافزا للنّزاع و الصّراع، و عليه «فلازم ضرورة أن

تكون الفلسفة هي التي بها تنال السّعادة، فهذه هي التي تحصل لنا بجودة التمييز»[12].

كما أن الحقيقة الفلسفية أجدر من الحقيقة الدّينية في توحيد الآراء واجتماعها حسب الفارابي، لأنها أشمل من الحقيقة الدينية، ولأن هذه الأخيرة لا تبرهن إلا على ديانة واحدة وتطرح بقية الديانات الأخرى، بينما الأولى يمكن أن توحد الآراء كلها، حول حقيقة واحدة، مبرهن عليها عن طريق العقل. ولا سبيل إلى توحيد آراء أهل المدينة وجمع شتاتها، إلا عن طريق الفلسفة الموحدة، التي لا تتعارض في أساسها مع الدّين، أي أن الذي يعجز عنه الدّين تتمكن منه الفلسفة.

و الفلسفة ضرورية، لإقامة الحكم السّياسي الفاضل وتأسيسه، باعتبارها الشرط الأساسي، الذي يجب توفره في رئيس المدينة الفاضلة، حيث يكون «قد عرف الفلسفة النظرية على التمام»[13]. و أكثر من ذلك أنه «إن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف إليه، لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك»[14]. و تكون المعرفة في صورتها الفلسفية، هي القادرة على إصلاح المدينة وبقائها، هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فإن الآراء بما فيها الآراء الفلسفية تتحدد أهميتها و فعاليتها في وظيفتها المدنية و دورها الاجتماعي و نخص بالذّكر هنا دورها في عملية الجمع و التوحيد الذي تقوم به، لأن الغاية المنشودة هي زوال الصراع و الانقسام مهما تطلب الأمر ذلك، حتى إن اقتضى الحال التضحية بما قاله أرسطوطاليس نفسه أو غيره من الفلاسفة المبجلين، لأن الفلسفة في الحقيقة ليس المقصود منها ما قاله فلان أو فلان بل المقصود منها هو جمع الشمل و توحيد الآراء، «فأنت إن نازلت إنسانين، أحدهما قد علم ما

في كتب أرسطو طاليس كلّها من الطبيعة و المنطقية والإلهية والمدنية والتعاليم، وكانت أفعاله كلّها أو جلّها مخالفة لما هو جميل في بادئ الرأي المشترك عند الجميع، والآخر كانت أفعاله كلها موافقة لما هو جميل في بادئ الرأي المشترك للجميع، و إن لم يكن عالمًا بالعلوم التي علمها الأول، فإن هذا الثاني أقرب إلى أن يكون فيلسوفا من الأول الذي أفعاله كلها مخالفة لما هو جميل في بادئ الرأي المشترك عند الجميع»[15]. وهكذا في سبيل اجتماع الآراء و تحقيق الإجماع بين الناس، يضحي معلمنا بما قاله أئمة الفلسفة وحتى بالفلسفة ذاتها، لأن المهم ليس في مضامينها و إنما المهم في دورها المدني الموكل إليها.

حتى أن معلمنا يذهب إلى أبعد من هذا الحد ليقول إن الحاكم «متى عرف الأفهام الكثيرة و الآراء المختلفة مجتمعة على كلمة واحدة و لم يجد ما هو أظهر منه وأكشف وأقوى فليتبع الكثير، فإن الحق معهم و السّلامة أبدًا مع الكثير»[16].

ثانيا: الملّة عند ابي نصر الفارابي.

بعدما برهن الفارابي على وحدة الفلسفة و اتفاق أئمتها، راح يخوض الجزء الثاني من عملية الجمع المبرمجة التي يسعى من خلالها إلى توحيد الآراء و القضاء على الصراع الفكري خاصة الذي كان حول كيفية التّوفيق بين الدّين و العقل الذي أخذ بدوره بعدًا اجتماعيًا و سياسيًا حادًا مما جعله يتفطن إلى مفهوم جديد غير معروف في الفلسفة اليونانية و هو مفهوم الملّة، فأولاه أهمية كبيرة و ذكره في بعض مؤلفاته إلى أن خصّص كتابا يحمل عنوان الملّة، حيث يسّن من خلاله المقصود منها و أثرها في بناء المدن.

و الملّة على حدّ تعريف التهانوي هي «و الطريقة سواء و هي في الأصل اسم من أمللت الكتاب بمعنى أمليته كما قال الرّاغب، و منه طريق مملول مسلوك معلوم كما نقله الأزهري. ثم نقل إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يمليها النبّي صلى الله عليه و سلم، ولا يختلف الأنبياء عليهم السّلام فيها»[17]. أما الملّة على حدّ تعريف الفارابي فهي تعني مجموعة «آراء و أفعال مقدّرة مقيّدة بشرائط يرسمها للجمع رئيسهم الأول، يلتمس باستعمالهم لها غرضًا له فيهم أو بهم محدودًا»[18].

1– مفهومها :

لكي نقف بالضّبط على مفهوم الملة عند الفارابي، علينا أولاً الوقوف على طريقة حصول المعرفة عند الناس على حد تقديره ، إذ أنها في الحقيقة تحصل بأحد الوجهين إما فلسفي أو تصويري. فالوجه الفلسفي خاص بطبقة الحكماء و الفلاسفة حيث ترتسم الحقائق في نفوسهم كما هي بالحجّة و البراهين كما تحصل عند تابعيهم بالتصديق و الثقة فيما يقولون، أما الوجه التصويري فهو خاص بعامة النّاس و الجمهور. و فيها تتم المحاكاة و تقريب الحقائق المجردة بواسطة الصّور و الأمثال، أي أن «الأشياء النّظرية و العملية... إذا كانت في نفس واضع النواميس فهي فلسفة و إذا كانت في نفوس الجمهور فهي ملّة»[19].و تستمد الملّة آراءها من الفلسفة على حدّ رأي الفارابي، لأنها ليست إلاّ صورة الأشياء الواردة في الفلسفة أو رسوم خيالاتها في نفوس الناس الذين «عسرت عليهم هذه الأشياء أنفسها و على ما هي عليه من الوجود التمس تعليمهم لها بوجوه أخر و تلك هي وجوه المحاكاة، فتحاكى هذه الأشياء لكل

طائفة أو أمّة بالأشياء التي هي أعرف عندهم»[20]، و بمعنى آخر يكون إدراك مبادئ الموجودات و مراتبها و السّعادة التي يسعى إليها الناس إما بالعقل أو بما يحاكيها من الأمور أي « إمّا أن يتصورها الإنسان ويعقلها وإما أن يتخيلها. و تصورها هو أن ترتسم في نفس الإنسان ذواتها كما هي موجودة في الحقيقة، وتخييلها هو أن ترتسم في الإنسان خيالاتها و مثالاتها و أمور تحاكيها. وذلك شبيه ما يمكن في الأشياء المرتبة كالإنسان بأن نراه هو نفسه أو نرى تمثاله أو نرى خياله في الماء أو نرى خيال تمثاله في الماء أو في سائر المرايا...»[21].

إلاّ أن قدرات الناس على فهم هذه الأمور مختلفة بسبب تفاوت فطرهم أو بحكم مواقعهم الاجتماعية. كما أن الملّة تلتئم من جزأين هامين هما «تحديد الآراء و تقدير الأفعال. فالضرب الأول من الآراء المحدودة في الملّة ضربان : إما رأي عبّر عنه باسمه الخاص الذي جرت العادة بأن يكون دالاً على ذاته، و إما رأي عبّر عنه باسم مثاله المحاكي له، فالآراء المقدرة في الملّة الفاضلة إما حق و إما مثال الحق. و الحق ما يتيقن به الإنسان إما بنفسه بعلم أول و إما ببرهان»[22]. ذ

هكذا إذًا يتم إدراك مبادئ الموجودات و مراتبها و السعادة و غيرها، و معرفتها تبعا لقدرات الناس الطبيعية و لفطرهم، و المعرفة التي هي إدراك للعقل الفعال لا تحصل بنفس الكيفية لجميعهم، إلاّ لمن كان مهيئًا لها طبيعيا –كما سبق ذكره- فهناك من تحصل لديه المعرفة بطريقة مباشرة كما هو الحال عند الفيلسوف و النّبي، و هناك من تحصل لديه المعرفة عن طريق التشبيهات أو الخيالات و هذا ما يحدث عند عامة الناس.

و من مهام الشخص الذي يحصل على المعرفة بطريقة مباشرة –أي الفيلسوف والنبّي- إبداع المتخيلات و الصور القريبة من نفوس الناس و

عقولهم حتى يفهموها. وهنا تتجلى أهمية المخيلة و دورها في إيجاد الصور اللازمة و الممكنة لتوضيح ما هو غامض «وهذه بأعيانها إذا كانت في نفس واضع النواميس فهي فلسفة، و إذا كانت في نفوس الجمهور فهي ملّة و ذلك أن الذي يبيّن هذه في علم واضع النواميس بصيرة يقينية، والتي تمكن في نفوس الجمهور متخيل و إقناع، و على أن واضع النواميس يتخيل أيضا هذه الأشياء... على أنها متخيل و إقناع لغيره و يقين له، و على أنها ملّة و له هو فلسفة»[23].و هذه المخيلة من اختصاص النبّي و ليس الفيلسوف رغم أنهما قادران معًا على الاتّصال بالعقل الفعّال، لأن الفيلسوف قد يملك المعرفة و لا يملك فن مخاطبة الجمهور وقيادته، لهذا يقول الفارابي إنه ليس كل فيلسوف يصلح دائما للحكم و الرئاسة، بينما النبّي يمتاز عليه بالقدرة على مخاطبة الناس و استمالتهم بتبسيط الحقائق و تحييلها إليهم.

و عندما يتم تخييل هذه المثالات و الصّور بغرض تقريب المعلومات الفلسفية من الجمهور «أنفسها و استعمل فيها الطرق الإقناعية، سميت الملكة المشتملة عليها الفلسفة الذائعة المشهورة و البرانية»[24].

2- وظيفة الملّة و أنواعها :

كنا قد ذكرنا سابقا أن الملّة ليست إلاّ مثالات لما في الفلسفة، فتكون صحيحة إذا كانت تابعة لفلسفة كاملة، و تكون فاسدة إذا كانت تابعة لفلسفة مظنونة أو مموهة أي أنها «على الجهتين إنما تحدث بعد الفلسفة»[25]. و الملّة لا يقصد منها معلمنا ملّة الإسلام أو غيره بل يعني الملّة أيًا كانت حتى لو كانت ملّة ضلالة، و الذي يجعل ملّة معينة فاضلة ليس كونها صادرة عن هيئات عالية أو موحاة إلى عقول تفوق العقل البشري بل الذي يجعلها فاضلة هو

اعتمادها أساسًا على فلسفة يقينية و قيامها على علم برهاني أي أنه إذا «كانت الفلسفة لم تصر بعد برهانية يقينية في غاية الجودة، بل كانت بعد تصحيح أرائها بالخطابية أو الجدلية أو السّفسطائية لم يمنع أن تقع فيها كلها أو في جلها أو في أكثرها آراء كاذبة لم يشعر بها... فإذا أنشئت ملة ما بعد ذلك تابعة لتلك الفلسفة، وقعت فيها آراء كاذبة كثيرة. فإذا أخذ أيضا كثير من تلك الآراء الكاذبة، وأخذت مثالاتها مكانها على ما هو شأن الملّة فيها عسر، و عسر تصوره على الجمهور، كانت تلك أبعد عن الحقّ أكثروكانت ملّة فاسدة و لا يشعر فسادها»[26].

كما يتحدث معلمنا عن تغير الملّة و اختلافها. فالمقصود بتغير الملّة هو إمكانية تعديل ما جاء فيها من آراء و أفعال لتتماشى مع متطلبات الناس و اقتراحات رئيسهم من أجل بلوغ الأهداف المسطرة حيث «يجوز للواحد منهم أن يغير شريعة قد شرعها هو في وقت إذا رأى الأصلح تغييرها في وقت آخر، كذلك الغابر الذي يخلق الماضي، له أن يغير ما قد شرعه الماضي، لأن الماضي نفسه لو كان مشاهدًا للحال لغيّر»[(27)].

نلاحظ من خلال هذه الفكرة أن الفارابي يسمح للحاكم بتغيير أو بتعديل الملّة، إلاّ أن التردد راوده في كتاب تحصيل السّعادة حيث يشترط على الحاكم الفيلسوف أن يكون «صحيح الاعتقاد لآراء الملّة التي نشأ عليها، متمسكًا بالأفعال الفاضلة التي في ملّته غير مخل بكلّها أو بمعظمها»[(28)]. هكذا لم تحسم الأمور بالنسبة إلى حاكم المدينة الفارابية فيما يخص الملّة و مدى إمكانية تعديلها حسب الظروف أو عدم المساس بها لا بقليل و لا بكثير. أما المقصود باختلاف الملل و تعددها فهو يرجع أصلا إلى اختلاف الكيفيات التي تخيل بها

مبادئ الموجودات و مراتبها عند الناس، إذ تحاكى هذه الأشياء لكل طائفة منهم بغير الأمور التي تحاكي بها لطائفة أخرى مما يؤدي إلى وجود «أمم فاضلة ومدن فاضلة تختلف مللهم، و إن كانوا كلهم يؤمون سعادة واحدة بعينها»[29]، أي الإمكان تصور أمم فاضلة و لكل واحدة ملّتها الفاضلة الخاصة.

ثالثا– أسبقية الفلسفة عن الملّة :

إن الفارابي يتحدث عن أسبقية زمنية للفلسفة عن الملّة قائلاً إن «الفلسفة تتقدم بالزمان الملّة»[30] و المقصود بالفلسفة هو الفلسفة اليونانية التي اكتملت على أيدي أفلاطون و أرسطو اللذان وصلا بها إلى مرحلة الكمال. مما يؤدي بنا إلى الحديث عن أسبقية منطقية للفلسفة عن الملّة لأنه يضيف في مكان آخر الخضوع المبدئي و الضروري لها، لأنه «إذا كان علم الشيء هو العلم البرهاني، فهذا الجزء من الفلسفة هو الذي يعطي إذن برهان الأفعال المقدرة التي في الملّة الفاضلة. و قد كان الجزء النظري من الفلسفة هو الذي يعطي براهين الجزء النظري من الملّة. فإذن الفلسفة هي التي تعطي براهين ما تحتوي عليه الملّة الفاضلة»[31]. وعليه إذا فالملّة التي هي آراء وأفعال مقدرة ومقيدة بشرائط يمكن معرفة ما إذا كانت فاضلة أو فاسدة بواسطة الفلسفة، فتكون ملّة صحيحة إذا جاءت بعد فلسفة كاملة و تكون ملّة فاسدة إذا جاءت بعد فلسفة مموهة و مظنونة، «و كل ملّة لم يكن الضرب الأول من الآراء التي فيها يشمل على ما يمكن أن يتيقن به الإنسان، لا من ذاته و لا ببرهان و لا كان فيه مثال لشيء يمكن أن يتيقن به بأحد الوجهين، فتلك ملّة ضلالة»[32].

.

.

و من الذين اهتّموا بهذه الفكرة، أو بالأحرى أسبقية الفلسفة عن الملّة زمنيا ومنطقيا المفكر محمد عابد الجابري الذي يتبعها من خلال ما يعتبره شكلاً من أشكال فلسفة التاريخ الذي يحاول الفارابي من خلالها شرح تطور الثقافة عبر المجتمعات البشرية وانتقالها من مرحلة التعبير المشخص بالإشارة و التصويت، إلى أعلى مراحل التعبير المجرد، مرحلة الفلسفة والدين. حيث يظهر جليا كيف أن معلمنا يتبع حدوث الحروف عند أمّة معينة وحصول اللغة لديها، مرورًا بحدوث الصنائع العامية كالخطابة و الشعر و رواية الأخبار وعلم اللسان و صناعة الكتابة و حدوث الصنائع القياسية بعدها و تطورها في استخدام الطرق الخطابية السوفسطائية حتى تصل إلى الطرق الجدلية أولاً ثم الطرق اليقينية بعدها. فتصل الفلسفة إثرها إلى مرحلة الكمال الذي لا تحتاج بعده إلى إضافات لأنها أصبحت علمًا يتعلم فقط و بعد هذا كله، «يحتاج إلى وضع النواميس وتعليم الجمهور ما قد استنبط بقوة العقل من الأمور العملية... فإذا وضعت النواميس في هذين الصنفين وانضاف إليهما الطرق التي بها يقنع و يعلم و يؤدب الجمهور فقد حصلت الملّة»[33].

وقد لاحظ الفارابي، من خلال دراسته هذه أنه يمكن استثناء بعض الحالات التي تسبق فيها الملّة الفلسفة، وهذا ما حدث عند العرب مثلا، حيث عرفوا الدين الإسلامي قبل أن يطلعوا على فلسفة اليونان. وهنا نشير إلى أن مفهوم الملّة عند الفارابي يرادف الدين ويخرج عن السياق الذي كان قد حدده فيما سبق. ونظرًا إلى أهمية هذه الفكرة، خصصنا مبحثا نتناول فيه العلاقة الموجودة بين الدين والملّة حسب الفارابي.

2 – الجمع بين الملّة و الفلسفة.

تحدّث الفارابي عن الأسبقية المنطقية و الزمنية للفلسفة عن الملّة من خلال "كتاب الحروف" و كتاب" إحصاء العلوم" تمهيدًا لتوضيح العلاقة الكائنة بين الفلسفة والملّة، إذ أنه بعدما اكتملت الفلسفة على يدي أفلاطون و أرسطو لم يبق على أهلها إلاّ تعلّمها وتعليمها، علمًا أنّ «كل تعليم يلتئم بشيئين : بتفهيم ذلك الشيء الذي يتعلم و إقامة معناه في النفس، ثم بإيقاع التصديق بما فهم و أقيم معناه في النفس. و تفهيم الشيء على ضربين : أحدهما أن تعقل ذاته، و الثاني بأن يتخيّل بمثاله الذي يحاكيه. وإيقاع التصديق يكون بأحد طريقين : إما بطريق البرهان اليقيني، إما بطريق الإقناع. و متى حصل علم الموجودات أو تعلمت فإن عقلت معانيه أنفسها و أوقع التصديق بها عن البراهين اليقينية، كان العلم المشتمل على تلك المعلومات فلسفة. و متى علمت بأن تخيلت بمثالاتها التي تحاكيها، وحصل التصديق بما خيل منها عن الطرق الإقناعية، كان المشتمل على تلك المعلومات تسمية القدماء ملّة»[34]. بهذه الطريقة و على هذا الشكل، يجعل من الفلسفة والملّة أمرين مترابطين ومتشابهين إلى حدّ بعيد، إذ «تشتملان على موضوعات بأعيانها، وكلتاهما تعطيان المبادئ القصوى للموجودات، و تعطيان علم المبدأ الأول و السبب الأول للموجودات فإنهما تعطيان الغاية القصوى التي لأجلها كوّن الإنسان و هي السّعادة القصوى و الغاية القصوى في كل واحد من الموجودات الأخر. و كل ما تعطيه الفلسفة من هذه معقولاً أو متصورًا، فإن الملّة تعطيه متخيلاً، و كل ما تبرهنه الفلسفة من هذه فإن الملّة تقنع. فإن الفلسفة تعطي ذات المبدأ الأول و ذات المبادئ الثواني غير الجسمانية التي هي المبادئ القصوى معقولات، و الملّة

تخيلها بمثالاتها المأخوذة من المبادئ الجسمانية وتحاكيها بنظائرها من المبادئ المدنية»[35].

على هذا الشكل نقول إن الملّة تشبه الفلسفة، إلاّ أن الفارابي يضيف إلى الملّة بعدًا دينيًا و يقول إنها تكاد ترادف الدّين دون تعيين أو تحديد مضبوط، أي أنه لم يقصد دينا معينًا دون غيره، كأن يقول دين الإسلام أو دين المسيح.

3- الجمع بين الملّة و الدّين.

إن الدّين وضع إلهي، يعتنقه الناس طوعًا بغية صلاح حالهم و فلاح مآلهم، وهو يتضمن العقائد التي تمثل الجانب النظري، و العبادات التي تمثل الجانب العملي، والملّة الفاضلة أيضا تحتوي على جانب نظري و جانب عملي أي آراء في أشياء نظرية و آراء في أشياء إرادية و تتمثل الآراء التي في الأشياء النظرية كما ذكرها الفارابي في كتاب الملّة فيما يلي :

- وصف الله تعالى.
- وصف الروحانيين و ما فعل كل واحد منهم.
- وصف العالم و أجزائه و مراتب أجزائه.
- حدوث الأجسام الأولى.
- ارتباط الأشياء التي يحويها العالم بعضها ببعض و كل ما يجرى في العالم عدل.
- انتساب كل شيء إلى الله و إلى الروحانيين.
- الإنسان و حصول النفس فيه.
- العقل و مرتبته من العالم.
- وصف النبوة و الوحي.
- وصف الموت و الحياة و الآخرة و السعادة و الشقاء.

أما الآراء التي نجدها في الأشياء الإرادية من الملّة الفاضلة فهي

- وصف الأنبياء و الملوك الأفاضل و الرؤساء الأبرار و أئمة الهدى والحق الذين توالوا في الزمان السالف و ما اختصر كل واحد من أفعال الخير.
- ما آلت إليه أنفسهم و أنفس من انقاد لهم و افتدى بهم من المدن و الأمم في الآخرة.
- وصف الملوك الأراذل و الرؤساء الفجّار المتسلطون من أهل الجاهلية و أئمة الضلال... و ما اختص به كل واحد من أفعال الشر.
- وصف من في الزمان الحاضر من الملوك الأفاضل و الأبرار و أئمة الحق... واختصوا به من أفعال الشرّ و ما تؤول إليه أنفسهم في الآخرة.
- وصف الرؤساء الفجّار و أئمة الضلال و أهل الجاهلية الذين في الزمان الحاضر... و ما اختصوا به من أفعال الشر و ما تؤول إليه أنفسهم في الآخرة[36].

هذه هي الآراء التي في الملّة المستمدة من الدّين و ما تحمله من تعاليم و قصص عن الأنبياء و الرسل و صفاتهم و سيرهم وصفات الرؤساء و الملوك و الأئمة الأفاضل منهم وأهل الجاهلية على السواء، وصفات الله تعالى و ما يعظم به و ما توصف به الملائكة، وما وعد الله به عباده المؤمنين و وعيده لغيرهم. و ينبغي أن تكون كل هذه الصّفات مخيلة إلى المدنيين ليكون ما يوصف لهم من تلك مثالات قريبة من أذهانهم ومحاكاة لعقولهم.

فالملّة على حدّ رأي الفارابي شاملة و تحتوي جميع الآراء و الأفعال الصادرة عن موجودات العالم نظرًا إلى موقفه الأنطولوجي فهو لم يخص موجودًا واحدًا دون آخر، كأن لا يخص إلا الله أو الإنسان أو المادة و إنما شمل كل الموجودات دون استثناء. كما أنه لم يخص فئة من الأشخاص دون أخرى، بل شمل الأنبياء و الملوك الأفاضل و الأراذل منهم، كما نجد معلمنا يصرح بالتقارب الموجود بين الدّين و الملّة بل يضيف إليهما الشريعة والسنة. «فإن هذين إنما يدلان و يقعان عند الأكثر على الأفعال المقدرة من جزئي الملّة وقد يمكن أن تسمي الآراء المقدرة أيضا شريعة، فتكون الشريعة و الملّة و الدين أسماء مترادفة»[37].

في الأخير، نلاحظ أن الفارابي يجعل من الملّة تكاد ترادف الدّين من جهة وشبيه بالفلسفة من جهة أخرى هو سبيل القضاء على ما يمكن أن يكون سبب الفتن والصّراع. لهذا نتساءل معه عن أسباب الصراع القائم بين أهل الملّة و أهل الفلسفة؟ علمًا أن هذا الصراع قد بلغ حدّه في عهد معلمنا الذي اجتهد كثيرًا ليبيّن لأولئك و هؤلاء أن خلافهم مفتعل و لا أساس له و لا مبرر، و لا داعي في أن تتهم جماعة بالكفر و الزندقة، وتقذف الجماعة الأخرى بالتعصب و التزمت المفرط.

الهوامش:

1-الحلو عبده، الفارابي المعلم الثاني، الطبعة الأولى (بيروت : بيت الحكمة، 1969)، ص .52

2-أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، قدّم له و علّق عليه ألبير نصري نادر، الطبعة الثانية (بيروت : دار المشرق، 1968). ص.151

3-إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقة الأطباء، ج.3 (بيروت : دار الثقافة، 1979)، ص 224.

4-الفارابي أبو نصر، كتاب تحصيل السعادة، ضمن مجموعة رسائل الفارابي الفلسفية (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1345ه). ص 88.

5-أبو نصر الفارابي، كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين، قدّم له و علّق عليه ألبير نصري نادر، الطبعة الثانية (بيروت : دار المشرق، 1968). ص .80

6-المصدر نفسه، ص .80

7- المصدر نفسه، ص .80

8- أبو نصر الفارابي، كتاب التنبيه على سبيل السعادة، ضمن مجموعة رسائل الفارابي الفلسفية، (حيدر أباد : مجلس دائرة ، المعارف، 1345 ه)، ص 19، 20.

9- المصدر نفسه، ص 19، .20

10- أبو يعقوب إسحاق الكندي، رسالة إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، الجزء 1، تحقيق و تقديم محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة : دار الفكر العربي، 1950)، ص 103،104

11- أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، حقّقه و قدّم له و علّق عليه محسن مهدي، (بيروت: دار المشرق، 1970). ص 156.

12- أبو نصر الفارابي، كتاب التنبيه على سبيل السعادة، ضمن مجموعة رسائل الفارابي الفلسفية (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 3415ه). ص .21

13- أبو نصر الفارابي، كتاب الملة، ص 66.

14- أبو نصر الفارابي، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 130.

15- أبو نصر الفارابي، فصول منتزعة،حققه و قدّم له و علّق عليه فوزي متري النجار، (بيروت: دار الشروق، 1972)، ص100

16- أبو نصر الفارابي، رسالة أبي نصر الفارابي في السياسة، نشر الآباء اليسوعين، لمعلوف و ج شيخو، الطبعة الثانية، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية، 1911)، ص .23

17- الشيخ المولوي محمد أعلي بن علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، الجزء السادس

18- أبو نصر الفارابي، كتاب الملّة و نصوص أخرى، حققه و قدّم له و علّق عليه محسن مهدي، (بيروت : دار المشرق، 1968). ص .43

19- أبو نصر الفارابي، كتاب تحصيل السّعادة، ضمن مجموعة رسائل الفارابي الفلسفية (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1345ه). ص .94

20- أبو نصر الفارابي، كتاب السياسة المدنية، حققه و قدّم له و علّق عليه فوزي متري النّجار، الطبعة الأولى، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية، 1964). ص .85.84

21- المصدر نفسه، ص 55 .

22- أبو نصر الفارابي، كتاب الملّة و نصوص أخرى، ص .46

23- أبو نصر الفارابي، كتاب تحصيل السعادة، ص 94 .

24- المصدر نفسه، ص .90

25- أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف،حقّقه و قدّم له و علّق عليه محسن مهدي،(بيروت: دار المشرق، 1970). ص .154

26- المصدر نفسه، ص153 .

27- أبو نصر الفارابي، كتاب السياسة المدنية، حققه و قدّم له و علّق عليه فوزي متري النّجار، الطبعة الأولى، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية، 1964). ص 80،81.

28-أ بو نصر الفارابي، كتاب تحصيل السعادة، ضمن مجموعة رسائل الفارابي الفلسفية، (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1345ه). ص.45

29- أبو نصر الفارابي، كتاب السياسة المدنية، ص 86 .

30- أبو نصر الفارابي، كتاب تحصيل السعادة، ص 91 .

31- أبو نصر الفارابي، كتاب الملّة، ص 47 .

32- المصدر نفسه، ص.46 .

33- أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، ص152 .

34- أبو نصر الفارابي، كتاب تحصل السعادة، ص 90.

[1] أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، حقّقه و قدّم له و علّق عليه محسن مهدي، (بيروت: دار المشرق، 1970).

ص 156.